سيكولوجية الإضراب*

بقلم محمود الراوى

المفروض فى هذا البحث هو التحدث بصفة عامة عن سيكولوجية الإضراب . وليس من الممكن فى بحث كهذا أن نقتصر على موضوع الإضراب بدون التعرض لموضوعى التظاهر والثورة ، فالدوافع واحدة تقريباً فى ثلاثتهم ، والانفعالات النفسية متشابهة أيضاً ، كما أن العلاج للجميع واحد .

وإضراب الطبقات وموضوع الثورات هما أمران يخصان الطبقات الحاكمة أو المتسلطة أو أحزاب الأغلبية تماماً كما يخصان الطبقات المضربة أو الثائرة أو أحزاب الأقلية .

وإنى أخشى أن يتهمنى القارىء غير المتمعن بعد قراءة هذا بالميل نحو طريق ما أو بالتحيز نحو وجهة خاصة ، خصوصاً إذا كان هو يميل إلى طريق آخر أو متحيزاً لجهة أخرى فالحقائق المجردة قد تكون إذ ذاك بعيدة عن منطقه . ولكن هذا غير صحيح ، فإن رائدنا هنا هو إيراد الحقائق العلمية وحدها ، سواء كانت فى صف هذا أو فى صف ذاك . . . والبحث العلمى كما نعلم جميعاً يجب أن يتوفر فيه الحياد وأن يكون خالياً من جميع هذه الاعتبارات الصناعية .

لقد رأينا فيما مضى (١) أن الدوافع الجنسية ليست هى كل شىء فى التحليلات النفسية ، أو فى التفسيرات النفسية لأمراضنا الاجتماعية . ويونج يقول بأنه حينما تكون الذات فى بؤس أو حالة شقاء أو عناء فإن كل دافع جنسى يختفى بسرعة — على الأقل مؤقتاً — وتزداد مطالب الذات حدة وظهورا .

ودراستنا هنا الآن هى دراسة فى نهوض « الذات » أو ما قد يسميه أتباع آدلر « احتجاج الذكر » أو masculine protest .

ويعلم العارفون بتعاليم فرويد أن هذا الباحث (فرويد) يعتقد أن الحب متصل

* بعض المعلومات الموجودة هنا سبق جمعها فى ١٩٤١ ، ١٩٤٢ من المراجع العديدة الثمينة الموجودة فى مكتبة العلوم الاجتماعية والمكتبة الطبية والمكتبة العامة فى الجامعة الأمريكية ببيروت

(١) الراوى : مجلة علم النفس عدد يونيو ١٩٤٧ ، ص ١٠٥

اتصالا وثيقاً فى نفوسنا بميل مضاد هو روح الشر . وهو يفسر بهذه الروح الشريرة منشأ الثورة « الجنسية » فى المجتمع البدائى على الأب الذى يرغم أبناءه على طاعته ويحرمهم من الامتيازات (الجنسية !) التى يتمتع هو بها[1]. ولكن هذه الثورة فى الحقيقة — كما رأينا سابقاً[2] — إنما تؤكد أن الذات المهضومة الحقوق بدأت تنهض ، وتثور على الرئيس الذى يعطى لنفسه امتيازات ليست لأفراد القبيلة .

ومع ذلك فان روح الشر والعداء تكمن فى أعماق العقل البشرى وإن كانت غير متصلة بالحب . ويرثها كل إنسان كجزء من التراث اللاشعورى الذى يسميه يونج « اللاشعور المشترك » collective unconscious . وهذه الغرائز فى المجاميع المتحضرة — حيث تتوفر الحرية الشخصية لكل إنسان — تتسامى بشكل ما ، وإن كانت تشاهد أحياناً (حتى عند أطيب الناس قلباً) فى ظروف معينة .

وأنا شخصياً — كواحد من أتباع يونج — أرى أن الدافع الرئيسى أو الدوافع الرئيسية التى تدفع الناس إلى التمرد تتكرر دائماً فى أثواب عديدة ، يمكننا تصنيفها بشكل متسع إذا أردنا أن نأخذ فكرة عامة عن هذه الحركات :

فهناك سبب واحد للإضراب : هو إعلان السخط على نظام معيشة حاضر .

وهناك سببان للثورة : هما الرغبة فى استخلاص حقوق الذات (أو المحافظة على الذات) ، أو قلب نظام الحكم أو المعيشة (هذا النوع الأخير يرتبط بالأول — أى استخلاص حقوق الذات — بشكل ما ، خصوصاً إذا كانت بعض الهيئات الأجنبية أو الأفراد الموهوبين ذوى المصلحة يستغلون أفراد الجمهور استغلالا معيناً فى بناء روح سخط عام على نظام الحكم أو المعيشة المراد قلبه) .

والمشاهد هو أنه لا تفكر طبقة فى الثورة ما دامت قانعة بحالتها الحاضرة مطمئنة إلى أنها تحيا كما يحق لها أن تحيا . وعلى هذا لا يجب أن نبحث عن أسباب التمرد فى داخلية الأشخاص وحدهم ، ولا فى البيئة وحدها ، وإنما فى عملية النضال بين الفرد والبيئة فى وقت معاً .

وجهات النظر

من المؤكد أن وجهات النظر فى موضوع كهذا تختلف باختلاف الأشخاص ،

(١) Freud : Totem and Taboo (in. A.A. Brill's "The Basic Writings of Sigmund Freud)" 1938 Freud : Massenpsychologie und Ich-Analyse, 1921

(٢) الراوى : «القتل السياسى» مجلة علم النفس عدد اكتوبر ١٩٤٧

أو باستعمال التعبير الذى أوجده يونج ، باختلاف « مركباتهم » النفسية . والمركب هو مجموعة الأفكار الثابتة فى اللاشعور (سواء كانت طبيعية أو مرضية) التى تؤثر فى اتجاه تفكير الشخص وأفعاله والتى تعطى هذا التفكير وتلك الأفعال طابعاً معيناً . وهكذا يمكننا أن نقول بأن وجهة النظر الرجعية مثلا قد تنظر إلى الموضوع نظرة تختلف تماماً عن وجهة النظر التقدمية .

بل إن المركبات قد تسبب أحياناً شذوذاً وخروجاً عن الطبيعى . ومثال ذلك فى الشخص الذى عند ما يرى شخصاً غريباً آتياً من بعيد لزيارته ظنه شقيقه الغائب الذى ينتظر قدومه .

ولهذا فإننا يجب أن نحترس كثيراً حتى لا تؤثر علينا مركبات من هذا النوع ؛ ولنأخذ طريقاً وسطاً فى تحليل سيكولوجية الإضراب .

فقديماً كانت الثورات قليلة جداً بسبب اعتزال الجمهور المحكوم عن رؤسائه وحكامه ، وبسبب عدم التنور واهتمام كل فرد إلى تحصيل لقمة الخبز بأى شكل . فكان الجنود المرتزقة يحاربون لكل من يدفع الثمن ، وكان المواطنون غير مكترثين لتفاصيل أى نزاع يحدث .

أما الآن فان الإنسان العادى قد بدأ يتنور — إن لم يكن قد تنور تماماً — ويهتم بما يحدث حوله وبما تتطلبه البيئة من قيود وبما تعطيه له من حقوق . وفى عصرنا الحديث نرى هذا الاهتمام على أشده .

وقديماً كانوا سعداء برغم الحياة السيئة التى كانوا يحيونها ، أما الآن فإن الجماهير متبرمة برغم الحياة الأحسن كثيراً (فى المتوسط) التى نحياها . وذلك لأن التبيؤ قديماً كان تاماً وكان الناس لا يفكرون فى حالتهم السيئة إذ يتسامون نحو أشياء أخرى ؛ خصوصاً نحو حياة الآخرة . . . ونحن نعرف كيف يعتقد بعض الهنود واليابانيين بحسن الجزاء فى العالم الآخر كلما زاد عذابهم واضطهادهم فى الدنيا (كانت طبقات معينة هى التى تروج هذه المذاهب الخاطئة لتسكين الشعوب فى خضوعها اليائس ، وتحويل هذا الخضوع فى تلك الشعوب المستعبدة إلى يقين وجدانى مبنى على هذه التعليلات البعيدة عن المنطق) .

وعلى هذا فإن الشعور بالسعادة (فى الجموع) أمر نسبى ، والشعور بالضيق أو التبرم أمر له أسبابه فى البيئة كما أن له أسبابه فى الفرد .

* * *

لو سألنا أحد العلماء البيولوجيين لرأينا أنه يجد فى التمرد سبباً واحداً فقط ، هو تنازع البقاء . ونحن نعلم أن هذه كانت نظرة العلماء البيولوجيين جميعاً فى أوائل القرن العشرين . وهى وإن كانت نظرة جافة ومبدئية إلا أن لها أساساً من سيكولوجية الذات ترتكز عليه !

كذلك لا يجب أن نتعلق بتفسيرات فرويد الجنسية هنا ، ولا أن نتعلق بمركبات أوديب أو غيرها . هل يعقل أن تكون مثل هذه الأنواع من التفاعلات المشتركة فى الجماهير « إظهاراً للعواطف الشهوانية المكبوتة عندهم » ؟ وأنها « عصاب مشترك يظهر بين الفينة والفينة » ؟ لقد أثبت نورمان إيست فى إحصاء قام به عن السلوك المعوج أن الدوافع المادية والاقتصادية إلى الجريمة تقع بنسبة ٥٧٩٤ إلى ١٣٣ فى حالة الدوافع الجنسية(١). وإذا كان السلوك المعوج لا يلعب فيه الدافع الجنسى إلا هذا الدور الصغير فمن غير المعقول أن يزداد هذا الدافع أهمية فى عمل تمردى مشترك كالإضراب أو الثورة ، تقوم به جماهير قد لا تربطها ببعضها صلة سوى قوة الظرف المفاجىء .

وقد أثبتت أبحاث كل من شو وماكاى(٢) أن نسبة الأفعال الخارجة عن القانون تزداد فى مناطق خاصة لها علاقة ببعدها عن وسط المدينة ، وهما يقدمان خرائط تبين كيف تتركز هذه النسبة بطريق خاص ، مما يدعو حقاً إلى التأمل . ويقول الباحثان إنه فى تلك المناطق نرى « العوامل التى تدفع إلى الأفعال الخارجة هى ذات العوامل التى تمنع نسبتها (أى الأفعال) من النقص » ، وإن هذه المساحات « بها نسبة عالية من عدم الاستقرار (بين السكان) ونقص فى مستلزمات المجتمع المتحضر واضطراب فى طرق التربية » وإن « عدم الاطمئنان الاقتصادى (أى الخوف من الناحية المالية) وما يتبعه من ازدحام السكان ، وتأثيره السيىء على شخصية الفرد هو كذلك عامل هام فى هذا الانحطاط » وإن « العمل الخارج يتوارثه الأفراد بطريقة معينة تصبح دليلا على هذه المناطق المضطربة » .

أليس هذا دليلا كافياً على أن البيئة الحالية فى نضالها مع الفرد هى أول ما يجب أن نتطلع إليه فى بحثنا عن علة التمرد المشترك ، كما فعل هؤلاء الباحثون عندما استقصوا عن علة التمرد الفردى ؟

(١) W. Norman-East : The Adolescent Criminal, p. 269. 1942

(٢) Shaw & McKay : "Social factors in juvenile delinquency" Report on the Causes of Crime, Vol. 2 Washington, 1931.

لقد قلنا إن هناك سبباً واحداً عاماً للإضراب ، وسببين للثورة . ولو أننا تعمقنا فى دراسة هذه الأسباب الثلاثة لوجدنا دوافع عديدة تتفرع من كل منها ، بعضها طبيعى وبعضها مرضى . كذلك لا نعدم أن نجد عدداً من أفراد الجمهور لا تنطبق عليهم حالة الجمهور بأجمعه . ولكننا سنترك هذه الحالات المفردة ، ونبحث فى سيكولوجية الجماهير كوحدة .

التمرد بين علم الإجرام وعلم النفس

وإذا أخذنا بهذه الأسباب الثلاثة كأساس (سنثبت صحتها فيما بعد) ، نجد أننا لن نستطيع أن نبدأ بإلقاء كل التبعة أو اللوم على الجماهير المتمردة ، أو نعزو إليهم روح الإجرام أو الشرور أو حتى الروح الطيبة . بل يجب أن نعرف الدوافع التى تدعوهم إلى العمل المشترك . لا يجب أن نكون كالمدرس الذى يقول عنه مينتجر[١] : « إذا سألته لماذا تبكى مارى أو لماذا يرسب جون رغم ذكائه . . . فإن حماقة الإجابة وركاكتها وضعفها ستجعل قلبك يتقطع ألما إذا كنت تفكر بذكاء . قد يجيبك : « إنها طفلة شاذة » أو « إنها لا تلتفت للدرس » أو « إنه مدلل » أو « إنه كسول » وكل هذه الإجابات معناها أن المدرس لا يعرف ، وأنه لا يريد بالمرة أن يعرف بأنه لا يعرف » .

ولكى نعرف هذه الدوافع التى تدعو الجماهير إلى التمرد ، علينا أن نذكر دائماً أن النتائج الاجتماعية لأى فرد — بما فى ذلك مسئوليته عن العمل — تتوقف على قوة دوافع هذا الفرد ، ودرجة ذكائه ، وتأثير الشخص فى المجموع الذى حوله ، وكذلك على القوة الاجتماعية لذلك المجموع .

وتقول ميليتا شميديبرج[٢]: « إن حرفية القانون تنص على أن الذى يسرق بتأثير ضغط الجوع فهو مجرم . إنى أشك فى أن أى إنسان معتدل التفكير سينظر إليه هذه النظرة ، فالمجتمع أجدر باللوم حيال هذه « الجرائم » من الأشخاص الذين يرتكبونها » .

كذلك لا علاقة للبيئة الأولى أو سوء التربية فى الطفولة بالعمل الخارج ، إذ

---

(١) K.A. Menninger : The Human Mind, p. 404. 1931

(٢) Mellitta Schmideberg : "Psychological factors underlying criminal behavior." J. Crim. Law and Criminol., Vol. 37, p. 458 1947

يستوى فى ذلك السيء والحسن ، والذى من أصل راق والذى من أصل وضيع ، إذا تهيأ كلاهما تهيئة نفسانية متماثلة وتعرضا لنفس البيئة معاً . وليس أدل على ذلك من الخليط الذى اتهم فى قضية عرضت أخيراً على القضاء المصرى بسبب التمرد السياسى ، إذ كان يضم شباباً من مختلف الطبقات .

وقد أبانت اليانور جلوك[1] أن الأبناء يتعرضون فى العادة لنفس الظروف الاجتماعية والاقتصادية التى مر بها الآباء ، فإذا زادت نسبة التمرد فى الأبناء فإن معنى ذلك زيادة النضال فى نواح أخرى من البيئة حولهم .

كل هذا الذى سقته يكفى لإقناع أى مجادل بأن أسباب التمرد ، سواء منه المشترك أو الفردى ، انما تعتمد أولا على الحالة الاجتماعية للبيئة ، ومركز الفرد فيها ، ثم على فشل الفرد فى عملية التبيؤ وعلى مدى هذا الفشل .

والدليل على أن الروح « الإضرابية » الشاذة ليست موجودة بالطبيعة فى نفس الجماعات أو فى طبقات معينة من الناس ، ما شاهدته حديثاً فى عدة طبقات فى مصر حيث كنت ألاحظ أن عدداً من الأجانب الذين عاشوا زمناً طويلا مع أفراد الطبقة المصرية فى بيئة واحدة أصبحوا ولهم أفكار زملائهم المصريين ونفس شكواهم بل وكثيراً من تفاعلاتهم النفسية أيضاً ، مما يدل على أن نضال التبيؤ يحدث بطريقة واحدة فى الجميع .

لقد قال يونج إن أهم شيء فى تفاعلات الفرد الشاذة (أو المرضية) هو وجود نضال نفسانى فى الحاضر — لا فى الماضى . ما دام النضال موجوداً بين البيئة وبين مجموعة من الأفراد فإن حالة التوتر النفسانى وحدها تهدد الأمن كما تهدده أكبر الثورات الدموية — فإن السلام والأمن هما أبعد شيء عن الاستكانة المؤقتة تحت أسوأ الظروف .

وسنتحدث عن هذا بالتفصيل فيما بعد .

---

(١) Eleannor Glueck : "Culture conflict and misconduct." Social Forces, Vol. 9, p. 484; 1931.

تجهيز المسرح

الفرد والبيئة :

رأينا فيما سبق أهمية التبيؤ وضرورة تكييف الشخص لنفسه طبقاً لمستلزمات البيئة الجديدة . وهذا التكييف أو التبيؤ يحدث تدريجاً إذا ما انتقل الإنسان إلى وسط جديد لا يألفه ، أو إذا واجهه موقف أو صعوبة لم تكن موجودة من قبل ، إذ أن عملية التبيؤ لا تخلو من صعوبة فهى تعنى تغيير عادات الشخص وأخلاقه بل وما هو أكثر من ذلك أحياناً . وتزداد العملية صعوبة إذا كان الوسط الجديد شاذاً أو مريضاً أو إذا لم يكن للشخص من يقوده نحو « ترضية » أو محاولة للتوفيق بينه وبين البيئة الجديدة (كما يفعل الطبيب النفسانى مع المرضى بالعصاب) . ولعل تتابع الحكومات المتعارضة وتضارب الأحزاب الحاكمة فى بلدة ما قد يؤدى إلى نفس النتيجة بين المواطنين . فبفقد الاتزان السياسى والاجتماعى يصبح من الصعب على المواطن العادى أن يتبيأ بسرعة طبقاً لما يقتضيه جو كل حكومة جديدة أو كل زعيم جديد.

وعدم إمكان التبيؤ على نحو مرض لابد أن يترتب عليه أحد عاملين فى الشخص السليم : إما الفشل التام فى محاولة التبيؤ وانسحاب الذات Psyche من البيئة (إما لتعيش فى جو من الخيالات Phantasy أو لتبنى نوعاً من الدفاع المريض ، أو تتحطم . . . الخ ، وهذا لا يهمنا هنا) أو مهاجمة البيئة المعادية فى محاولة القضاء عليها أو إحداث تغيير فيها .

وهذا الهجوم على البيئة المعادية إذا قام به أشخاص فرادى يعتبر تطوراً باثولوجياً وغير مجد . ولكن فى كل أنحاء العالم وفى كل الأزمنة نجد مع ذلك أنه قد أمكن فعلا تغيير بيئات وتحويل نظم اجتماعية راسخة وذلك عن طريق حركات الجماهير . وأمثلة ذلك فى تطور الثقافات المختلفة والعادات والمعتقدات — لا فى المجال السياسى وحده — وكذلك فى المحاولات التى أقيمت بها أو أسقطت حكومات أو زعماء ، بل وانقلبت الدساتير .

ولا يظنن القارىء أن الشبان هم أول الناس تأثراً من هذه الناحية ، فالشيوخ فى الواقع أصعب تبيؤا من هؤلاء (وإن كانوا خالين من « العناد » أو « الغرور » الذى يزيد من حدة التفاعل عند الشباب) ويزداد عندهم التوتر الداخلى كلما

وجدوا أنفسهم مضطرين إلى ترك أفكار وعادات عاشوا لها طيلة حياتهم السابقة ، تضيع بضياعها قيمة الحياة فى أنظارهم . ومع ذلك فإن روح الاحتجاج الظاهر على هذه الحوادث عند الشيوخ — كما قلنا — ليست لها نفس الحدة التى عند الشباب .

وأحسن سياسة طبعاً هى محاولة التوفيق بين الأفراد والبيئة ، بتغيير الموقف أو البيئة قليلا ، وبتغيير الأفراد قليلا . أما الوقوف فى صلابة من أى من الناحيتين فليس وراءه إلا التلف للأفراد أو البيئة أو لكليهما .

ومهاجمة البيئة هى المحاولة التى يريد بها الفرد أن يكتسب راحة النفس ، وقد ينتج منها ضرر للبيئة أو فساد للموقف . ومحاولات الهجوم هذه تتخذ أشكالا عديدة ، كالقتال أو تكلف العظمة أو خرق التقاليد والقانون أو تحدى السلطة والثورة على السيطرة . وفى الأطفال تظهر فى صورة العصيان وسورات الغضب . ويقول مينجر[1]: « وإن أخطر الأشياء أن تهاجم البيئة بالإضراب عن العمل والإعراض عن القوانين الموضوعة . . . وبعض الشخصيات تستطيع القيام بأعمال إجرامية تتحطم بها البيئة تحطيما ويحدث منها ضرر على المجتمع لا يمكن قياسه ، وقد يكتسبون بذلك الخلود . ومن هؤلاء نابليون والاسكندر الأكبر ، كما أن آل كابونى (المجرم الخطير) يعتبر أيضاً مثالا للثورة على المجتمع » .

ويبين ثراشر[2] فى كتابه عن تجمع الأطفال فى عصابات أن العصابة هى أنموذج صغير لعملية « التكتل » ضد البيئة العدائية ، على اعتبار أن الأطفال برغم صغر سنهم يجدون بالتجربة أن مجابهة البيئة جماعة خير من مجابهتها فرادى .

عيوب المجتمع العصرى

إن علم النفس يرى فى طبيعة الإنسان بواعث مستمرة من التنافس والجشع والعداء ، سواء فى الفرد أو فى الجماعة ، وسواء كانت شعورية مقصودة أو لاشعورية غير مقصودة . واعتراف علم النفس بوجود هذه الطبيعة الشريرة (ظاهرة أو كامنة) شىء قديم ، ولعل من صالح الفرد والجماعة بل العالم كله أن يفهم الإنسان هذه البواعث الكامنة فيه ويحاول دائماً أن يكيفها ويتحكم فيها .

---

(١) Menninger, Op. cit. p. 25

(٢) Thrasher : The Gang, p 23, 1927.

ولا يقف علم النفس عند حد تعريف الناس بالميول الشريرة الشعورية أو اللاشعورية ، وإنما هو أيضاً يعترف أن المجتمع الذى نعيش فيه مقلوب ، تختلط فيه القيم الحقيقية بالقيم المزيفة للأشياء . فهذا شتيرن يبين أن اهتمامنا دائماً بالقيم الظاهرية للأشياء يعتمد على أساس غير سليم ، وطبقاً لهذا فإن جميع القيم فى الدنيا (وهى التى يفرض على كل إنسان أن يتبنى طبقاً لها) إنما هى قيم بارانوية أى أنها لا تتفق وقواعد المنطق ، حيث أنها لا تمكن أكثر من الوصول إلى أغراضهم أو حتى من الهرب من حالتى التوتر والضيق اللذين يسببهما الفشل الاقتصادى(١).

ويقول راينهاردت بدوره : « إن الشخص العادى يبين قيمته الاجتماعية باستئجار رجال آخرين يعملون له . ولكن كونه يستأجرهم بالشروط التى تعطيه أكثر الفوائد ومحاولته الحصول على أكبر ربح بدفع أقل أجر لهم ، وطرده هؤلاء العمال ليصبحوا عالة على المجتمع بمجرد أن ينقطع الربح الذى يحصل عليه باستغلالهم ، لا يمكن أن يدل بالمرة على أن له قيمة اجتماعية ! »(٢) .

فى مثل هذا المجتمع المريض حيث لا يستطيع الفرد العادى أن يحقق آماله أو أن يجد تعويضاً فى شىء آخر ، وحيث يرتبط الأفراد من طبقة واحدة ارتباطاً يجعل منهم وحدة ، نرى أن الطريق الوحيد للهروب من هذه المتاعب هو إما التجاؤهم إلى القوة أو باظهار استنكارهم . وإذا لم يكن هذا الالتجاء إلى القوة أو الاستنكار منظماً وفى اتحاد قد تكون نتيجته وبالا على الفرد أو الأفراد .

وفى مثل هذا المجتمع المريض ، حتى إذا لم يقم الأفراد بعمل من أعمال القوة ، فإن احترامهم للقانون ، والعلاقات المدنية ، وخضوع كل فرد للسلطة المسيطرة يقل أو ينعدم ، إذ أنه (الفرد) يجد بتكرار التجربة الرهيبة أن هذه النظم والعلاقات المثالية لا وجود لها وأن تمسكه بها لا يفيده فى حياته شيئاً . . . فلماذا يكون طيب القلب مثلا وكل شىء حوله ينطق بالقسوة ؟ ولماذا يكون كريماً والذين حوله يقتتلون لنهب الغنائم ؟ وكيف لا يرتشى وهو يجد زملاءه بل رؤساءه فى العمل يتقبلون الرشوة ؟

إن من الضرورى على كل مصلح أن يزيل عناصر الفساد الاجتماعى قبل أن يحاول خلق الإصلاح ، فكما يقول ايلمر ساوثارد فى كتابه « مملكة الشر » . . . من السهل علينا أن نرى الشر ونلمسه ، ولكن من الصعب حتى أن نفكر فى الخير .

(١) W. Stern : Allegemeine Psychologie auf Personalitisher Grundlage, p. 98, 1935.

(٢) J. Reinhardt : Social Psychology, p. 259, 1938.

يجب إذن أن ننتفع من هذا الشر الموروث ونبدأ بتحطيم الشرور الملموسة الظاهرة لا أن نبنى خيراً مبهماً غير واضح ومن الصعب الوصول إليه . اقض على الشر القريب فلا بد أن يأتى الخير البعيد » .

نضال الطبقات

لماذا نجد فى كل الأحوال أن التذمر لا يصدر إلا من الطبقات الفقيرة أو الطبقات المحرومة ؟ لماذا لا يحدث فى وقت من الأوقات إضراب تقوم به طبقة من الطبقات التى تتمتع بامتيازات فى كل شىء ؟

ليس مستغرباً مثلا أن نسمع عن إضراب يقوم به عمال الفحم فى بريطانيا ، أو إضراب تقوم به طبقة من صغار الموظفين فى مصر ، ولكن إذا قلت لصديق لك إن بعض اللوردات فى لندن قد أضربوا فإنه يقول لك بسرعة : « غير معقول — ولماذا يضربون ؟ » .

وكلمتى « لماذا يضربون » وحدهما تكفيان للدلالة على الطريقة التى كان يفكر بها الصديق فى تلك اللحظة ، وأنه كان يعنى رفاهية اللوردات ونوع حياتهم التى تنعدم فيها دواعى التذمر(١) .

وعلى النقيض من هذا نرى حياة العمال والزراع أكثر بؤساً من بعض الحيوانات . ولن أصورها هنا بنفسى فان فى تصوير زوربَو لها أدق تمثيل لما يحدث عندنا (٢):

« هذه هى دنيا الفقر اللانهائى ، وما يتبعه من صور كئيبة : أمهات يشقين وأطفال يشتغلون من أجل كسرة خبز ، ونسبة عالية جداً من الوفيات سواء فى الأطفال أو الكبار . وأفراد العائلة ينحشرون فى الحجرة حشراً ، وإذا كانوا يشتغلون على دوريات فقد ينامون جميعاً على ذات الفراش الذى ينام فيه سواهم فى وقت آخر . والحجرة لا يدفئها سوى لهب مصباح الغاز ويملأ جوها الدخان والغبار ورائحة الدروب القذرة الآتية من الخارج ، وحتى صناديق القمامة يجدون فيها مصدراً للطعام .

« ففى هذه الأماكن المزدحمة الوضيعة ، حيث يحرم على الإنسان أن يعيش لحظة لنفسه ولأفكاره ، نجد أقسى حقائق الحياة تظهر كالشمس للطفل الصغير :

(١) إذا امتد الإضراب من هذه الطبقات الصغيرة إلى طبقات أعلا فإن هذا يدل على خطورة الاختلال فى النظام الاجتماعى وله نتائج أبعد مدى وأعظم أثرا ، مباشرة وغير مباشرة .

(٢) Zorbaugh : The Gold Coast and the Slum, p. 10, 1929.

« يجب أن تكون قاسياً لكى تعيش » . فهذه الحياة المليئة بالنضال ، النضال مع صاحب الملك ومع الجيران ومع الجوع والبرد ، بل ومع أهم لزوميات العيش ، لم يترك فيها الزمن شيئاً جميلا . »

هؤلاء جميعاً تتكون منهم أجساد الشعوب ، وهم يعملون من أجل أسيادهم المسيطرين ذوى الثروة والجاه ، حتى ولو كان هؤلاء الأسياد أقلية لا تذكر . ومن مصلحة الأسياد أن يبقى « جسد الشعب » منحطاً وبدون قيمة ، حتى يظلوا منشغلين عن أسيادهم بالبحث عن لقمة الخبز .

وعلى العموم نرى أن كل نظم الطبقات والتمييز بينها قد بدأت بهذا الشكل ، والطبقات المتوسطة بين هؤلاء وأولئك ليسوا إلا الذين استطاعوا أن يشقوا لهم طريقاً أحسن فى هذه البيئات الملتوية ، إما بطريق الصدفة أو بطريق القسوة والخيانة والخداع .

والحالة عندنا فى مصر الآن هى التى كانت موجودة فى أوربا وأمريكا قبل مجىء العصور الصناعية ، أى حينما كان نظام الاقطاعيات من الأرض هو الأساس فى العلاقات بين الطبقات .

« وفى كل المجتمعات التى تأسست على ملكية الأرض نرى أن مالكى الأرض هم الذين يحددون حقوق والتزامات من يزرعونها لأجلهم . ولما كان الطريق إلى الهروب لأماكن أخرى معدوماً فقد ظلت فروق الطبقات جافة صلبة ، وأغلقت أبواب النجاح فى وجوه الفقراء وازدادت « ارستقراطية » الطبقات المالكة على حساب الطبقات العاملة بل إنها زادت بالمران وحتى بأنواع الحفلات والطقوس حيث كانت تصاغ نفوس الطبقات المعدمة بشكل يؤيد هذه الارستقراطية وذلك النظام . وطبيعى أن هذا النظام الاجتماعى يصبح تمرد الجماهير فيه — لأى سبب كان — ذا مدى بعيد جداً وتكون نتائجه مدمرة مريرة »[1].

الوعى المشترك

رأينا أن الحياة الصعبة إذن هى مهد التذمر المشترك والثورة ضد فروق الطبقات . ولكن كيف يحدث هذا ؟ إنه لا يكون إلا عن طريق الوعى المشترك (أى الوعى الذاتى فى الجماعات) .

(١) J. Gillette & J. Reinhardt : Current Social Problems, p. 177, 1933.

فما دام الشخص متيقناً أنه لن يستطيع الحصول على حياة أحسن نراه لا يحاول أن يحصل على هذه الحياة الأحسن ، ويظل فى هذه المرحلة (وسنسميها مرحلة ما قبل الوعى) إلى أن ينتبه يوماً إلى حقيقة حالته وهنا فقط يصبح تفاعله النفسانى شديد الأهميـــة .

وفى هذه المرحلة — مرحلة ما قبل الوعى — يتبيأ أفراد الطبقات المغمورة لما يحوطهم من مظاهر البؤس والاضطهاد الاجتماعى ، مما يمكن أن نسميه « التبيؤ للفشل » . وأحياناً يكون هذا التبيؤ تاماً إلى درجة أن الأفراد لا يحاولون الهروب . بل أن مؤثرات الحياة التعسة قد تصبح شيئاً أساسياً فى حياته لا يطيق الاستقرار بدونها . فأغلب هؤلاء الناس قد وصلوا إلى قرار الهاوية وأصبحوا يعرفون فى شىء من راحة الضمير أنهم لا يمكنهم الوصول إلى مرحلة من البؤس أشد من ذلك ، فهم قوم محرم عليهم الطموح والعمل المنتج والشعور بالكرامة . والغالبية العظمى من شعبنا هى من هذا النوع ، يزيد فى تبيؤهم ما يكرره أمامهم دعاة الدين من أفضلية القناعة وشكر الإله على المصائب !

وما دام « المنحطون » من أفراد المجتمع يأخذون عن أنفسهم فكرة « الانحطاط » كقضية مسلمة ، فمن النادر أن تحدث فى داخلية الذات تفاعلات مضادة . وهذا بالضبط يحدث فى البلاد التى يغزوها الاستعمار ، حيث يتبيأ أفراد البلدة المحكومة لمستوى شديد الانحطاط فى الحياة ويتعودون أن يكونوا أذناباً وعبيداً للمستعمر ويصبح لديهم ما يشبه « مركب » السيطرة والخضوع . ويبقى هذا « المركب » ما دام المثقفون من أفراد هذه البلاد يعتقدون باستحالة النضال من أجل الاستقلال.

ومهما يكن فإن كل مجموعة من هذه الجماهير لا بد أن تحتوى على أناس أكثر ذكاء أو أكثر مقدرة على الملاحظة والتفكير ، وهؤلاء يعانون من شدة النضال الداخلى ومن الشعور بالمرارة كلما قارنوا أنفسهم بالغير من أفراد الفريق الممتاز . وهذه النسبة من غير المتبيئين تزداد كثيراً إذا صعد بعض أفراد تلك الطبقات المغمورة إلى مراكز الأسياد أو الرؤساء .

وتزداد النسبة أكثر إذا كان أفراد الفريق المغمور يعادلون أو يشعرون أنهم يعادلون على الأقل جزءاً من أفراد الطبقة السائدة فى مواهبهم أو مستواهم الأدنى أو الثقافى . وهذا بالضبط يحدث الآن فى ألمانيا ، حيث يعتقد الألمان بأن مستعمريهم أقل منهم فى المرتبة وفى القيمة الثقافية والاجتماعية .

وتزداد إذا كان الأفراد الموهوبون يأملون فى الوصول إلى مستوى أحسن عن طريق العمل الشاق ثم ينقطع عليهم هذا الأمل بسبب النظام الاجتماعى المريض .

وتزداد أيضاً إذا كان الأغبياء والمتزلفون يصلون إلى نفس هذا المستوى لا لشىء إلا لأنهم يجيدون فى الغباء والتزلف . ومن السهل إذن أن نتصور مدى صعوبة التبيؤ ومرارة المقارنة عند هؤلاء الموهوبين المغمورين .

* * *

« . . . عند ما تنصفق أبواب الرزق وتحسين الحال فى أوجه الطبقات العاملة ، أو عند ما يشعر الفرد أن ما حصل عليه بالجهد الجهيد قد بدأ ينزلق من أصابعه ، فإن من المحتمل جداً أن ينهض الوعى المشترك عند هذه الطبقات ، حيث يظهر بشكل أحد أعمال التكتل المنظمة . وليس من الضرورى أن يكون هذا العمل ثورياً أو عدائياً دائماً ، فهذا يتوقف على نوع وطبيعة القوى الخارجية المسببة للاضطراب[1] »

ويجب أن نلاحظ أن حدة الوعى المشترك تتناسب تناسباً طردياً مع شدة الضغط الخارجى . فقد يشعر الأشخاص بالعواطف (من يأس أو غضب أو خوف أو غيرة) التى تدفع إلى التمرد فيثورون فى ظروف معينة ، وقد يشعرون بها كذلك فلا يثورون فى ظروف أخرى . ومن هنا نرى أن الوعى المشترك هو توازن ديناميكى يتوقف على هذه العواطف وعلى الكيفية والشدة التى تثار بها .

وإذا أصبحت طبقة فى مرحلة الوعى المشترك (وهى مرحلة لا بد من المرور بها إن عاجلا وإن آجلا وإنما تختلف باختلاف الشعوب وبطرق التسامى عند كل شعب) فإنها تصبح فى حالة تربص للطبقة أو الطبقات المضادة ، ويزيد النفور بسبب حوادث بسيطة قد لا تزيده فى الأحوال العادية . ففى سنة ١٩٣٦ مثلا — حينما كان العداء مستحكماً بين ألمانيا وروسيا السوفييتيه — ثار الألمان بسبب الحكم على رجل ألمانى فى محكمة روسية ثورة كبيرة ما كانت لتحدث لو أن نفس الرجل حوكم فى محكمة إيطالية . كذلك بلغت حوادث السيارات الانجليزية خلال الحرب فى مصر عدة آلاف من ضحايا ومصابين دون أن تثير الرأى العام المصرى ، ولكن بعد الوعى القومى فى ١٩٤٥ أصبحت نفس هذه الحوادث تثير الجماهير إلى حد أن البوليس المصرى كان يجد صعوبة فى المحافظة على الرعايا البريطانيين .

(١) J. Reinhardt. op. cit., p. 329.

وبتكرار الحوادث البسيطة حينما يكون الفريق المتبرم فى حالة تربص لا بد أن تأتى المرحلة التى يحدث عندها الانفجار.

سيكولوجية « احتجاج الذكر »

رأينا إذن أن الوعى المشترك هو الأداة التى تسير بالناس نحو التمرد والثورة (والإضراب مظهر من مظاهر الثورة) إذا تعرضت لعدد من المؤثرات الخارجية الهامة. ومن هذه المؤثرات ما يتعلق بالذات (فقد الحرية الشخصية، اليأس.. الخ) ومنها ما يتعلق بالمادة (أى بالذات بطريقة غير مباشرة).

وهذه الثورة من أجل الذات، وحق الحياة والحرية، هى ما يسميه آدلر احتجاج الذكر. وإنى أفضل استعمال هذه التسمية على استعمال « ثورة الذات » لأن « احتجاج الذكر » أوسع فى المعنى وأقرب إلى الواقع.

وليس من الضرورى أن يكون احتجاج الذكر عملا ثورياً فى كل الأحوال[1]، كقتل الأب فى القبيلة البدائية (خرافة مركب أوديب) وثورة الجماهير فى العصور الحديثة. فقد لا يزيد على شعور بالضيق من البيئة ونضال داخلى بسيط أو شديد. وقد وضعت فى سنة ١٩٤٣ اسماً لهذا النضال (الذى غالباً ما يشاهد فى الأشخاص العصابيين) هو « مركب الحيرة ». والشخص المتضايق من عمله مثال دقيق لمركب الحيرة، فإن عدم التبيؤ عنده يجعله يكره العمل، ويثور على النظام، ويشاكس زملاءه ورؤساءه أحياناً بدون مجرد الرغبة فى المشاكسة، وهكذا.

وفى أغلب أنواع النضال النفسانى يمكننا أن نعتبر الشخص فى حالة « حيرة » إلى أن يتبيأ، أو إلى أن يقوم بتفاعل يدل على عدم التبيؤ.

أما « احتجاج الذكر » الحقيقى فهو — فيما أرى — المرحلة التى يقوم فيها الشخص بعمل إيجابى لمواجهة البيئة العدائية.

وإذا أدت هذه الوظيفة النفسية « احتجاج الذكر » إلى عمل ثورى أو تمردى مشترك بين الجموع فقد يكون مبالغاً فيه بسبب الحالة الشبيهة بالبارانويا التى تتملكهم أحياناً[2].

---

(١) راجع كلام رينهاردت فى الصحيفة السابقة (مرجع رقم ١٦).

(٢) كمثال لاحتجاج الذكر المعتاد مطالبة الشخص لصديقه بالاعتذار له عن إهانة ألحقها به، فهو عمل إيجابى خال من «الحيرة» وتفاعل معتاد. وكمثال للنوع المبالغ فيه اذكر تقتيل الرعاع للنبلاء فى الثورة الفرنسية كتعويض عن الإهانة التى لحقتهم عن طريق الاستعباد

وإلى هنا يتم تجهيز المسرح . ومن الحقائق المعروضة فى الصفحات السابقة نرى أن الاضطهاد أو عداء البيئة أو سوء توزيع الثروة أو فروق الطبقات أو التميز فى العمل كلها لا تؤدى إلى التمرد وحـــدها ، وإنما الذى يؤدى إليه قبل كل شىء هو شعور الجماهير بحقوقها المسلوبة . فإذا لم تشعر بهذا فلن تستطيع قوة أن تدفعها إلى التمرد ، إذ أن مثل هذا العمل يكون بغير دافع .

وهذا هو السبب فى أن من مصلحة الطبقات المسيطرة أو المستعمرة أو الممتازة ، وفى كل نظام اجتماعى غير مؤسس على الحرية الشخصية ، من مصلحتها ألا تتنبه الجماهير إلى حقوقها الإنسانية أو حريتها ، لأن ذلك معناه فى النهاية سلب هذه الطبقات السائدة من امتيازاتها .

وهذا يفسر أيضاً كيف أن أغلب نضال الجماهير فى مختلف عصور التاريخ لم يقم به السوقة — وهى أكثر الطبقات انحطاطاً وعبودية — وإنما طبقات لها من الامتيازات القليلة ومن التفكير ما يجعلها تميز وتقارن ثم تناضل من أجل الحقوق المسلوبة .

وحيثما يكون الوعى الذاتى وظيفة أساسية فى قيام الحركات الثورية من السوقة نراه دائماً قد انتقل بالعدوى من بعض أفراد موهوبين ، يغذيه — عند هؤلاء السوقة — بدء الشعور بالكرامة .

(فى بقية المقال فى العدد القادم سنتحدث عن جميع الدوافع المباشرة — أساسية وثانوية — وعن سيكولوجية الفرد فى أثناء النضال مع زملائه وعن العلاج المثمر حيال حركات التمرد) .

محمود الراوى

منشورات جماعة علم النفس التكاملى

المنشأة برعاية المغفور لها الأميرة شيوه كار

قريباً

مدارس علم النفس المعاصرة

تأليف
روبرت وودورث

وترجمة
كمال دسوقى

الكتاب فى تاريخ علم النفس الحديث الذى ظهرت له سبع طبعات فى ثلاث عشرة سنة ، به عرض ومقارنة وتحليل لكافة المذاهب السيكولوجية المعاصرة وأهم علمائها ، منقول نقلا علمياً دقيقاً ، وقد زوده المترجم بمقدمة وافية وتعليقات متتابعة على أكثر من مائة عالم ونظرية ، وبحواشى وفهارس ومراجع كثيرة . مرجع شامل يجمع بين دفتيه خلاصة علم النفس الحديث : مدارسه وأعلامه ونظرياته ومراجعه ومصطلحاته .

فى حوالى ٣٥٠ صفحة من القطع الكبير

الناشر
دار المعارف بمصر